سيكولوجية الجنس (*)

للأستاذ محمد محمد علي

السيكولوجيا أو علم النفس هو العلم الذي يدرس سلوك العقل أو الشعور . وبالطبع ليس للجنس sex عقل ولا شعور ولكن عندما نتكلم عن سيكولوجية الجنس إنما نعني دراسة ذلك الجزء من العقل الذي يتأثر بالحياة الجنسية . وفي أواخر القرن الماضي ظهر فرويد بنظرياته — التي أذهلت العالم ، والتي نرى معظمها أن العقل ليس هو الشعور ، ولكنه خليط أو جمع بين الشعور واللاشعور . ومنذ ذلك الحين ، حاول المربون وعلماء النفس ، الكشف عن المكان الحقيق للجنس في ذلك الخليط . وكلنا سيكولوجيون ؛ على الأقل على طريقة الرجل الذي يتكلم النثر طول حياته من غير أن يعرفه ! فإذا قلنا لأحد شيئاً ، فإننا نعرف ماذا يجيب ، وذلك باستخدام معلوماتنا عن علم النفس . فمثلا إذا سألنا أحداً في يوم مطير : « جو مخيف ! أليس كذلك ؟ » نعرف أن الإجابة غالباً ماتتفق وسؤالنا .

وقد تساءل علماء النفس عن مكانة الجنس في النمو العقلي . وليس هناك من يجيب إجابة صحيحة . فقد ذهب بعض أتباع فرويد ، وقرروا أن الحياة الجنسية تتحكم في نمو الفرد العقلي .

إن الغريزة الجنسية ترمي إلى استمرار النوع ، فهي تأتي بعد المحافظة على النفس التي تضم كل الغرائز . وفي ظل الدنية لا بد من السيطرة على الغرائز . وبسبب هذه السيطرة ، نسمو بالغريزة الجنسية ، فنقول مثلا في المناسبات : السيدات والأطفال أولا . وبسببها أيضاً أمسك الناس عن ذكر المسائل الجنسية إلا في غرفة النوم . وظهر الخجل عند تعليمها . وهذه السيطرة هي مايسميها علماء النفس : كبت الغرائز . ويرجع كثير من الناس بالجنس إلى وراء ، فيتجنبون مايشغل جزءاً كبيراً من حياتهم . يحاولون أن ينسوه . وإذا رزقوا أطفالاً لم يعلموهم شيئاً عن الأمور الجنسية ، فلو سألهم أطفالهم مايسمى بالأسئلة المحرجة — وهي الأسئلة التي يوجهها الأطفال عادة إلى آبائهم — فإن الآباء يحاولون إسكاتهم ويخبرونهم كذبا !

إن الكبت الشديد يجلب التأخر والهبوط ، وهو مرض خطير ، يختلف عن ضبط النفس الذي هو مواجهة شريفة شعورية للواقع ، وليس هذا بالأمر السهل ، إنما يخلو من الصراع بين الدوافع البيولوجية والعقلية . وضبط النفس كبت للغريزة الجنسية الطبيعية ، لأن له نفس الأثر في تحديد النسل ، كطريقة الحيوان في بقاء الأصلح . وفي الحق إن ضبط النسل الحديث ليس فيه شيء من « بقاء الأصلح » إنما يضمن حياة الأسر المحدودة ؛ فكل أعضاء الأسر الصغيرة لديهم الفرصة ليكونوا « صالحين » لأنهم ينالون نفس العناية والغذاء كما لو كانوا موزعين في أسر أكبر .

قلنا ان الغريزة الجنسية تتلو غريزة المحافظة على النوع . فالشعور بالجوع ، دافع قوي غريزي للمحافظة على النفس ، ولكن للغرائز في حاجة إلى كبت — إلى حد مخصوص — ، وإلا فإن الفرد يصبح نهماً أو مجنوناً جنسياً ، مما يؤدي به إلى مخفر الشرطة أو مستشفى الأمراض العقلية .

إن مشكلة الحب قد راقت كثيرين من علماء النفس . فقد كان معتقداً أن الحب والكراهية ضدان . ولكن تعاليم فرويد دلت على أن لا تعارض بينهما . وما الكراهية إلا جزء من الحب . وليس هناك حب خال من شيء من الكراهية وشيء من العواطف الأخرى ، التي تكون في مجموعها الحب .

ومن الثابت أن الشعور الجنسي فينا جميعاً يختلف تبعاً للوقت . ولكنه لم يثبت كيف يختلف التأثير الجنسي في حياة الفرد اليومية . فليست غريزتنا الجنسية وغرائز جيراننا ، هي التي تؤثر فينا فحسب ، بل إن أولئك الذين لم ترهم يمكن أن يغيروا حياتنا . فالشذوذ الجنسي — في رجل مثل هتلر — قد أثر في حياته ، وبالتالي في العالم أجمع .

ولما درس علم النفس كعلم ، بدأ الناس يعرفون الدور الحيوي الذي يقوم به الجنس في حياة الفرد اليومية ، وتنبه الباحثون إلى مسألة لها من الأهمية مثلما لدور الجنس في الحياة ؛ وهي كيف تؤثر ظروف الحياة في الغريزة الجنسية ؟ نحن نسلم أن الشخص

(*) تلخيص من كتاب : Sex problems and youth, &The technique of sex

الجائع — بصرف النظر عن حاجته للاشباع الجنسي — يهتم بمعدته أولا . ولكن ماذا عن الأم ؟ لئن كانت الأم جائعة ، فان شعورها وغريزتها تدفعانها إلى إطعام أطفالها قبل نفسها . ولقد قيل إن غريزة الأمومة جزء من الغريزة الجنسية . وإذا جمع الحب الخالص بين شخصين فإن شعورهما نحو بعضهما يمكن أن يظل ثابتاً أمام تيار الحظ السيء . كذلك الزوجين ، يتحمل كل منهما صاحبه في السراء والضراء . ولكن حينما كان النمو الجنسي لأحد الطرفين أو كليهما ليس من هذا القبيل ، فان تغييراً طفيفاً في الخطوط ، كفيل بانفصال الشريكين .

وإذا تحاب اثنان فانهما يتصوران أن لا شيء يشغل بالهما سوى الأفكار الجنسية . كم مليون من الرجال يرتكبون خطايا طيلة يومهم ، ثم ينسونها وهم في صحبة امرأة في المساء ! إن كل شيء ينسى في نشوة اللذة الجنسية . يحسب الرفيقان أن الناس قد غفلوا عنهما ولكن نقر الباب أو صوت التليفون قمين بأن يرجع بهما سريعاً إلى عقل ماحولها ومعرفته ! ويتساءل بعض الناس : لئن كانت الحياة الجنسية عاملا فعالا في النمو العقلي ، فلماذا يجتاحنا النشاط الجنسي بقسوة عارمة في غالب الأحيان ؟ الجواب هو أن هذا الاجتياح ضروري لإزالة العقبات التي تقف في سبيل هذا النشاط ، كالخطايا اليومية .

ويحلو للكثيرين أن يقرروا أن ذوي الاسترخاء الجنسي بوادم Impotents في حل من الوقوع تحت السيطرة الجنسية . ولكن هذا لايحدث فهم قد ولدوا نتيجة للجنس ، ثم إن علاقتهم بالآخرين تتحكم فيها عقول هؤلاء . فبطريق غير مباشر يتأثرون بالحياة الجنسية .

يختلف الناس في تأثرهم بالغريزة الجنسية ، فمنهم الناطق ومنهم من يقال عنه إنه : بارد . وبعضهم ذو مثلية[1] جنسية ، والبعض الآخر يكره المرأة misogynst وقد جادت قريحة أحد العلماء بنظرية خطيرة ، هي نظرية الثنائية الجنسية bisexualjty ، التي تقرر أن الإنسان يولد وفيه شعور أو ميل جنسي نحو الجنسين .

(١) Homosexuality أي العلاقة الجنسية بين فردين من جنس واحد ، بين ذكرين أو أنثيين : وهي جزء من الشذوذ الجنسي sexual abnormality : الذي هو أعم .

وفي الفرد العادي يكون الشعور نحو الجنس الآخر متناباً ، إما لا يختفي الشعور الجنسي نحو نفس الجنس ! ومن السهل أن نتصور بالعقل تلك الحقيقة الواقعة في الجسم . فلكل رجل ثديان ، وهما — قبل كل شيء — أعضاء تناسلية ثانوية للأنثى والأفراد العاديون هم الذين لهم أصدقاء من كلا الجنسين . أما عند غير العاديين ، فان التوازن يختل ، إما لأنهم ولدوا كذلك ، أو لأن ظروفاً خارجية أوجدتهم في حالتهم هذه .

إن الوضع الاقتصادي — وهو جزء من مدنيتنا — منظم ليجعل الظروف المحيطة بجماعة ، تختلف عن الظروف المحيطة بجماعة أخرى . وتأثير الوضع الاقتصادي على الحياة الجنسية لبعض الفتيات ، يظهر بوضوح في عقول المومسات اللائي جعلن الغريزة الجنسية تساعد غريزة المحافظة على النفس ، وتصبح تحت سيطرتها . عندهن أن البغاء هو الطريق الوحيد للارتزاق . على أنه يمكن أن نميز بينهن متزوجات !

وبوجود الصراع المستمر في عقولنا ، يصعب علينا أن ندخل السرور إلى نفوسنا . ومثل هذا الصراع يوجد في عقول الذين هم في حاجة إلى الإشباع الجنسي ، أو الذين يجهدون أنفسهم جنسياً أكثر مما يتحملون . ويلاحظ بوجه عام الذين يعيشون عيشة رغدة ناجحة ، تكون حياتهم التناسلية لا غبار عليها ، ومن تكون حياتهم التناسلية طبيعية ، ينحون في حياتهم الاتجاهية .

إن علم النفس لا يزال في المهد ، وقد عطنا الشيء الكثير عن خطايا الناس وأثرها في حياتهم . كما عمل ولا يزال يعمل — على إدخال السرور في قلوب الناس . إنه يحررنا من كثير من أنواع الكبت التي كنا نراها ضرورية ، ثم يتبين لنا اليوم أنها تضايقنا . وأخيراً هو المسئول عن حركة التثقيف الجنسي .

محمد محمد علي

اطلب كتاب
وحي الرســـالة